و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

بسم الله رب الغلام

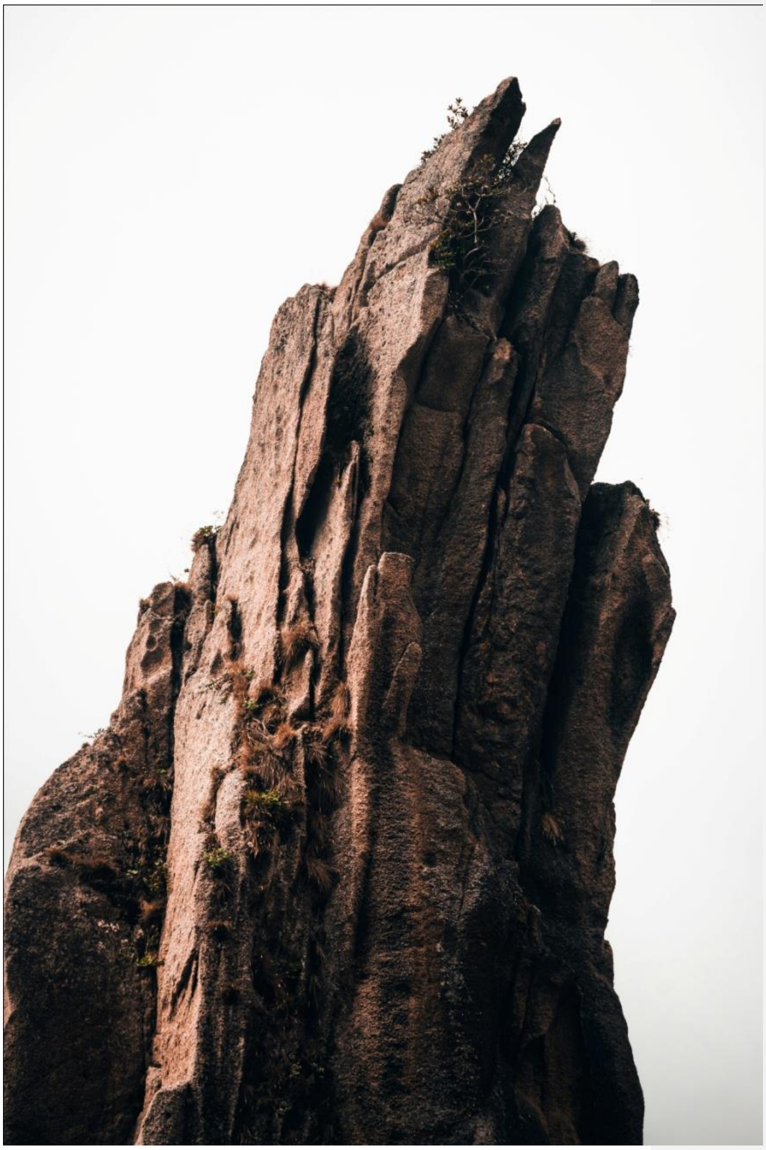

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

٢٧-١-١٤٤٥هـ

"بسم الله رب الغلام"

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمدَ لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا -صلى الله عليه وسلّم- عبده ورسوله.

أمّا بعد:
ستتحدّث عن قصة رواها النبيّ عليه الصلاة والسلام لأصحابه أخبرنا فيها بخبر عن الأمم السّابقة، ولعلّ صغارنا يحفظون السّور التي وردت فيها، والمهم من كل القصص القرآنية_بالدرجة الأولى_ هو أخذ العبرة، ولذلك فإن هذه القصة بالذات لم ترِد إلا لأنها مخالفة لما اعتاد عليه المسلمون. لذلك سنقف معها عدة وقفات، ونستكشف أسرارها، ونستنبط سبب إفراد الله عز وجل سورة كاملة باسمها في كتابه العظيم:

حَدَّثَنَا هَدَّابُ بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ صُهَيْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كبرَ[أي السّاحر]، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِه[أي في طريق الغلام]إِذَا سَلَكَ[أي إذا مشى]رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ،فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: "حَبَسَنِي أَهْلِي"، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: "حَبَسَنِي السَّاحِرُ"، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِك[أي يتردّد بين السّاحر والرّاهب]

إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ[أي الغلام]: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: "أَيْ بُنَيَّ [يا بني]أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى [ستتعرّض للمخاطر]، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ"، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي[أي كلها لك إن أعدت إليّ بصري]، فَقَالَ:[أي الغلام]"إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ"، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: "إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ"، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ

بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: "كَفَانِيهِمُ اللهُ"، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: "اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ [سفينة]، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ"، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: "اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ"، فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: "مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟" قَالَ: "كَفَانِيهِمُ اللهُ"، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: "إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ"، قَالَ: "وَمَا هُوَ؟" قَالَ: "تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي[جعبتي]، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي"، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: "بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ"، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ [بين شحمة أذنه وعينه]، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: "آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ"، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: "أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ"، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ[حفر صغيرة مستطيلة الشّكل]فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا [أحرقوه]، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ [ارمِ نفسك بها]، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ".[1]

قصة **(أصحاب الأخدود)** ليست من وحي الخيال، إنّما هي ثابتةٌ عن نبيّنا، وبطلها الغلام.

يقول المفسّرون: (الغلام) في لغة العرب: ما فوق سنّ الفطام، وما دون سنّ البلوغ، أي: فوق السنتين ودون الرّابعة عشر أو الخامسة عشر. لكم أنْ تتخيلوا وتتأملوا كيف لغلامٍ بهذا العمر أنْ يقفَ وِقفة الرّجال العِظام!

- **<u>لنا وقفات مع هذه القصّة:</u>**

- **<u>الوقفة الأولى: هذا الخبر يختزل كل أدوار الحياة بقصّة واحدة:</u>**

إنّنا نتحدّث عن راهبٍ، هو المؤمن الوحيد في مملكة كاملة، فلنتخيل أنّه الوحيد الحامل لبقيّة دين عيسى بن مريم -عليه السلام- لأنّ كلمة **(راهب)** تدلّ على **(النّصرانية)**، ونلاحظ أنّه لم يدعُ إلى عيسى قطّ، بل كان يدعو إلى **(توحيد الله)** عندما كان يقول: **"ليس لك ربٌّ إلا الله"**. وهذا هو دين النّصرانية الصّحيح قبل التّحريف، وهذا ما جاء به عيسى، يقول الله جل جلاله: {ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم} **(المائدة: 117)**.

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، 53: 3005.

إنّ هذا الراهب الذي حافظ على دينه لم يكن يحلم أنّ أهل المملكة سيؤمنون به، فكل ما كان يفعله هو العبادة والاجتهاد بها ما استطاع، وهذا ما عَنيتُه عندما قلتُ إن القصّة تختزل أدوار الحياة؛ فلا بدّ أنْ نغوصَ في أعماقها، ونتأمّل كيف كان الراهب يستغرق في عبادة الله سبحانه وتعالى، وكيف كان يدعوه بكلّ خوفٍ لأنّه يعلم الخطر المحدق به إذا انكشف أمره.

لا بدّ أنْ نتفكّر بتلك الأحداث كيف أنّ الله دبّر الأمر، وقدّر له الأسباب من حيث لا يشعر بها الإنسان.

من اللّطائف في هذا الحديث أنّ من رواته (**صهيب الرّومي**)، وأيضًا من الذين أخبروا بشطر من هذا الحديث (**خباب بن الأرتّ**)،صهيبٌ وخباب ممّن أوذيا وعُذّبا في سبيل الله، في بدايات الدّعوة بمكّة، وهذا مما يلامس شيئًا في قلوبنا عندما نجد علاقة بين الرّاوي وبين حديثه. وتجدر الإشارة _هنا_ أنّ خبابًا كان مملوكًا لسيدةٍ كافرة، وكانت تعذّبه؛ فتُحمي أسياخَ الحديد على الجمر ثم تضعها على ظهره حتى يطفئَها شحمُه. وذات مرّة جاء خباب بجروحه إلى نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلم، يقول خباب: **"جئنا إلى الرّسول -عليه الصّلاة والسلام- وهو متوسّد ببردته في ظلّ الكعبة، فقلنا يا رسول الله: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟"**؛يقصدون أنه مضى عليهم ثلاثة عشر عاماً في مكة، وهم يعذّبون، فلذلك جاؤوا للرسول صلى الله عليه وسلم وطلبوا إليه أنْ يدعوَ الله لهم بالنّصرة، فقال النّبي -عليه الصلاة والسلام- يحكي لهم تجاربَ الأمم: إنّه كان الرجل في من كان قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، ويوضع المنشار في مفرق رأسه فيُشقُّ حتى يقع نصفين، فلا يردّه ذلك عن دينه.
حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا قَيْسٌ، عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».[2]

لم يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما حدث بهذا الحديث أنْ ستقوم للإسلام قائمة، ربّما كان يعتقد أنّهم قد يموتون كما مات أصحاب الأخدود. لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم _آنذاك_ قد وعدهم بعد بكنوز كسرى وقيصر؛ فهذه الوعود كانت فيما بعد في المدينة.

لقد وصلتنا هذه القصة من غير تفاصيل؛ بأيّ زمن؟ وبعهد أيّ نبيّ؟ وكم كان عددهم؟ ... إلخ، فالقصّة والتّجربة قابلةٌ للإعادة بكلّ زمان ومكان.

وإذا تأملنا القصص القرآنيّة التي انتصر بها المؤمنون على الكفّار (**قصّة نوح، هود، صالح، ولوط...**)، لوجدنا أنّ كلَّ هؤلاء الأقوام كفروا وآذَوا أنبياءهم، فرجفت بهم الأرض، وعذّبهم الله كلًّا على شاكلته. فالقرآن خيرُ برهانٍ على انتصار المؤمنين في نهاية المطاف دائمًا.

لذلك؛ هذه القصة من الفرائد التي تعكس الصورة، فالانتصار لا يكون دائمًا انتصارًا دِنيوياً، فأصحاب الأخدود _كما

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري:3612.

رأينا_ أُضرمت لهم النيران في الأخاديد وأُقحِموا فيها حتى ماتوا، لكنّ هذه ليست النّهاية!

- **الوقفة الثّانية: الحقُّ أبلجٌ والباطلُ لَجْلَج:**

بأيِّ طريقةٍ مَلَكَ المَلِكُ قومَه في هذه القصة؟ بالحكمةِ واللّين؟ أم بالجبروت والتّسلط؟

وماذا تستنتج في بداية القصّة؟

نستنتج انتشار السّحر والشّعوذة، وإشغالَ النّاس بالأساطيرِ والخرافات، وكلّما انتشرت تلك الأمور، ازداد شعورُ النّاس بالعيش بين قِوىً خفيةٍ من جنٍّ وشياطينَ ومردة، فكان الجهلُ يحكم عقولهم، فبالعقل نعرف إلهنا وديننا ونبيّنا، المسألة لا تحتاج إلى تعقيد، ومصدرنا واضح جليّ، كتاب الله وسنة رسوله، نتّبع ما يأمرنا به الله عزّ وجل، وما قاله النبي -عليه الصلاة والسلام-وثبتت صحّته في علم الحديث، هذا منهجنا، فالطريق واضح جدّا! -القرآن والحديث-لا يجب التكلّم بفتوى إذا لم يُؤتَ بدليل من مصادر الشّريعة وعلومها.

فحبُّ الدّين ظاهرٌ في كل فصول القصة، فعندما يقول الغلام:**"ربي الله"، ويقول** جليس الملك للملك:**"ربّي وربّك الله"**.. فالذي قالوه طوال القصة هو مفهومٌ عظيم، فربّنا ربّ السماوات والأرض والمشرق والمغرب، إنّها حقيقة واحدة واضحة (ربنا الله) ولا يستطيع الإنسانُ تغييرَها.

- **الوقفة الثالثة: لا تعرّض عقلك وقلبك للكفر:**

عندما ينهاك الله عن تعريضِ قلبك وعقلك للكفر؛ فيجب أنْ يشملَ هذا النهيُ عقولَ وقلوب كلّ من أنت مسؤولٌ عنهم، فعندما طلب السّاحر إنساناً يعلّمه السّحر؛ لم يطلب رجلاً ذكيّاً أو شديداً... وإنّما حدّد غلاماً صغيراً، وذلك لأنّ فطرته لا تزال سليمةً كصفحةٍ بيضاءَ، فالإنسان الكبير _بالتأكيد_ تكوّنت لديه معتقداتٌ ومبادئُ ومفاهيمُ وآراء، وقد يعترض فلا يوافق على عدّة أمور، أمّا الطفل فسينشأ على السّحر بلا أيّ مانع، فتخيّل أنّه بلغ أربعين سنة _مثلاً_ فيكون قد عاش عمراً طويلاً تَشَرَّبَ قلبُه السّحر بكل حذافيره، مما سيمهّد له أنْ يكون ساحراً من الكهنة الكبار.

لذلك من الأهمية بمكانٍ ألّا تُعرِّض قلبك لأيّ موطنٍ من مَواطن الكفر، الشّرك، والسّحر، دورة من دورات الجذب أو دورة من دورات الطاقة، وتقول: إيماني قويّ لكنّني أريد أنْ أذهبَ كي أطّلع على طقوسهم، كي أوسّع معرفتي... فقد يكون دين الإنسان بخير وعندما يعرّض عقله وقلبه للكفر قد يتجاهل كلام الله ورسوله، ويكوّن حاجزًا بينه وبين خالقه، وفي نفس الوقت يعاني من بلاءٍ معيّنٍ**(مرض مزمن، طلاق، عُقم...)** ففي تلك الظروف القاسية، وتحت ضغط هذا البلاء يبدأُ البحثَ عن أيّ مخرج يُخرِجه من ألمه وحرمانه، أيّ مخرج يحقّق له الطُمأنينة، فيجرُّه الشّيطان إلى طريق السّحر أو الشّرك أو البدع والخرافات.

فمن هذا الباب يجب أنْ تحرصَ على طفلك، ولا تتركْ له مجالاً للتعرض لمثل تلك المواقف، فكلّكم راعٍ وكلّكم مسؤولٌ عن رعيّته، ويجب عليك مراقبته عندما يشاهد التّلفاز أو الفيديوهات في مواقع الإنترنت، أو الأفلام السّينمائية التي تعرض أفكار السّحر والشّعوذة، فصفاءُ ذهن طفلك، وصفحة فطرته البيضاء تجعل تعريضه لتلك المناظر طريقاً معبّداً لتعريض قلبه وعقله للكُفر.

- **الوقفة الرابعة: وجّه طاقاتك وطاقات من تعرف إلى النفع المتعدّي:**

طلبَ السّاحر غلاماً ذكياً فطناً؛ ليتمكّن من تعلّم السّحر بسرعة، وكلّ ما يجب أنْ يتعلّمه. فإذا كان طفلك أو أخوك الصّغير يمتلك هذه الطّاقة أو الموهبة فيجب ألّا تجعلها تضيع في الزّحام.

فإذا كان عنده _مثلاً_ مَلَكةُ الحفظ السّريع، أو سرعة البديهة، فهناك فرق بين استغلال طاقته لحفظ الأغاني، وبين استغلالها لحفظ القرآن أو أيّ علمٍ نافع، فما من إنسان إلّا وله طاقةٌ أو موهبةٌ من نوعٍ ما، واللّبيب من يوجهها إلى النفع المتعدّي.

ولذلك أُرسِل لي من قِبل أحد الطّلبة مقطعُ فيديو؛ يتحدث عن شخصين أمريكيّين يتناقشان عن(**ngHomeSchooli**)وهي: (**المدرسة داخل البيت**)، فيسأل أحدهم: أأنت الذي تدرّس أطفالك؟

فيجيبه: لا، بل أجلب لهم مدرّسين مختّصين، فقال الأوّل: أنا لا أسميها (**Home Schooling**) بل (**Private school**)أي: (**دراسة خاصة**)؛ فإذا كان ابني مُبرمِجًا بالفطرة، فلماذا أُدخله مدرسةً يجلس فيها اثنتي عشرةَ سنةً من عمره، في حين أنّه سيكون أفضل مبرمجٍ في التّاسعة من عمره تقريبًا؟

وهو من الآن يجني الأموال لإنجازه بعض الأمور التّقنية. فلاحِظْ حسن توجيه طاقة ابنه، لكنّه يتكلّم _فقط_ من منظورِ دنيويٍّ بحت.

لقد وجهنا رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام إلى الحرص على أبنائنا منذ 1400 سنة، ونحن نعرف هذا الحديث:

«كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ...»[3]

علينا أن نبحث عن طاقاتنا وطاقات من معنا، ونحاول توجيهها إلى المكان الصحيح، إلى المكان الذي يمكن أن نخدمَ به ديننا.

هذا السّاحر بلغ من سحره أنّه لا يريد أنْ يموتَ، ويضيعَ كل ما وصل إليه من إتقان السّحر، فحرص على تعليمه وتوريثه للجيل الذي يليه.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه.

- **<u>الوقفة الخامسة: إذا أراد الله أمراً هيّأ له أسبابًا:</u>**

سلك الغلام طريق تعلُّم السّحر، فهيّأ له الله -سبحانه وتعالى- الرّاهب، ولو غَيَّرَ طريقه لما اجتمع به، و-سبحان الله- لو لم يطلب السّاحر غلاماً يرثُ سحره لما اجتمع الغلام بالرّاهب، ولولا الراهب لما حدث كل هذا بالغلام، فإذا أراد الله -جل جلاله- أمرًا هيّأ له أسبابه.

فلا تعلم كيف ذلك،ومن أين؟ ولذلك نحن لا ننظر للمدى البعيد، ونظنّ دائماً أنّ الأبواب تُفتَح من جهةٍ واحدة.

لمّا أرادَ الله جل جلاله أنْ يردَّ موسى -عليه السلام-إلى أمّه، لم يكن ذلك عن طريق المعارك والجيوش العظيمة، بل أعادهُ الله-سبحانه وتعالى- إليها يحمله فرعون نفسه، بعد أنْ حرّم الله عليه المراضع كلَّها.

قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(القصص: 12-13).

ولمّا أرادَ الله -عزّ وجلّ- ألّا يعيش موسى حياةَ الذّل التي عاشها بنو إسرائيل؛ إذ كانوا يحيون حياة العبيد عند فراعنةِ مِصر، أوحى لأمّه أنْ ترضعَه، ثم تقذفَه في البحر. فهل خطر للعقل البشريّ-آنذاك-كيف سينجو طفلٌ رضيع في صُندوقٍ مُلقىً بين أمواج لا نعرف إلى أين ستحمله؟ لك أنْ تتخيّلَ ذلك.

وعندما التقطه آلُ فرعون هيّأ الله تعالى له امرأةَ فرعون لتقول له: لا تقتلوه، ولنتخذْه ولدًا، لعله يكون قرّة عينٍ لنا.

قال تعالى: ﴿قرة عين لي ولك لا تقتلوه﴾(القصص:9).

هذا _والله_ من اليقين بالله، فعندما يؤمن الإنسان أنّ له ربّ حكيم، يدبّر له جميع أموره، ثم يريه كيف يكون ذلك.

لذلك، جعل اللهُ تعالى الغلامَ يسأل الراهب في كل مرة: **ماذا تعبد؟** فلم يزل به ملحًّا ومصرًّا حتّى أخبره الرّاهبُ أنّه يعبد الله -عزّ وجل- هذا هو **(التّوحيد)** الذي كان مفقودًا في القرية بأكملها.

- **<u>الوقفة السّادسة: حينما يكون الابتلاء تربيةً:</u>**

كان الغلام يملأُ جُلَّ وقته بالتّعلم! تارةً يذهب إلى السّاحر؛ يتعلّم عليه السّحر، ويأخذه عنه -تمامًا- كما يريد، وما يرافق ذلك من أمورٍ فيسيولوجيّة ماديّة، وتارةً أخرى يذهب إلى الرّاهب يتعلّم منه التّوحيد، ودين الله العظيم،وما

يرافق ذلك من أمورٍ روحانيّة. وبالتّأكيد هذا سيخلق عنده نوعًا من **(التّشتت)**، وهذا ما يحدث للطّفل عندما يقع بين أمرين متناقضين.

فما كان من السّاحر إلّا أنْ أصبحَ يستنكرُ عليه تأخّرَه، ويضربُه على ذلك، ولعلّ الله -سبحانه وتعالى- هيّأَ له هذا الضّرب كتمرينٍ على الابتلاء؛ ليصمدَ في وجه تلك الابتلاءات العظيمة التي ستواجهه في المستقبل، فعندما يحيا الإنسان حياةَ التّرف، يصعب عليه الثّبات في المواقف الصّعبة، لذلك لا بدَّ من التّنشئة الصّحيحة على القوّة والعزيمة، وعلى الإنسان ألّا يخافَ من الابتلاءات المُحيطة به، وأن يحسنَ الظّنَ بالله، ويظنّ بالله خيرًا. وهذا مما يساعد على تكوين الشّخصية لأنّ التّرف المستمر قد يُفسدها، فالمزج بين الشّدة والرّخاء، يصنعُ شخصيّةً متوازنة.

يقول الشيخ ابن تيمية-رحمه الله-كلمةً جميلةً في هذا الموضع: **"النّاس في العافية يحبّون الله عزّ وجلّ، وكلُّهم مؤمنون به، فإذا نزل البلاءُ تمايزوا"**، فاتّضح المؤمن الحقيقي الثّابت من المؤمن المزيّف الضّعيف.

- **<u>الوقفة السّابعة: شاوِرْ سواكَ إذا اختلطت عليك الأمور:</u>**

تضرّر الغلام تضرّراً جسديّاً ونفسيّاً من ضربِ السّاحر المستمرّ له، فهل قرّر أنْ يقطع صلته بالرّاهب من تلقاء نفسه؛ ليتجنّب التّعرُّض للضّرب؟ أم أنّه شكا ذلك للرّاهب واستشاره قبل اتّخاذ أيّ قرار؟

لقد شاور هذا الغلام الصغير من هو أكبر منه سنًا _وفي هذا درس مهمٌّ لنا_ وعندها هداه الرّاهب الحكيم إلى الطريق الصحيح، وقدّم له حلًّا ينقذه من الضّرب المستمر، ويمكّنه من إكمال مسيرته في تعلم دين التوحيد بنفس الوقت، وهو أنْ يقولَ إنْ تأخر على الساحر:**"حبسني أهلي"**، وإن تأخر على أهله: **"حبسني الساحر"**.

فعندما تتّخذ قرارًا معيّنًا، وتتردد في تنفيذه، ويوسوسُ لك الشيطان أنْ تتراجعَ عن قرارك، فتفقد حماسك لتنفيذه شيئًا فشيئًا، وتسأل نفسك: لماذا أشقُّ على نفسي؟

فعندئذٍ عليك أنْ تشاورَ غيرك، وألّا تجلس حبيس نفسك، فالذّئب يأكل الغنم القاصية، ويترك تلك المجتمعة مع بعضها بعضا. والمرء يقوى بأهله والنّاس من حوله. كما أنّه من المهم _أيضاً_ إنْ تعرّض أحدُ المسلمين لمشكلة ما ألّا يكونَ طرفاً مستمعاً فقط، بل يسعى لإيجاد الحلول لتلك المشكلة، فرسولنا -عليه الصلاة والسلام- يقول: **"....وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ..."**[4]

[4] أخرجه البخاري في صحيحه.

- **<u>الوقفة الثامنة: سؤال الله الهداية:</u>**

لا يمكن أن يُهدَى الإنسان دون أن يسأل الله الهداية، هذا الطفل الذي ببداية عمره قرر إنه يسأل الله الهداية بطريقة مختلفة:

فعندما حبست الدابة الناس، كان الغلام قد تعلم سحر الساحر ودين الراهب، فقال: **"الآن أعرف أمر الراهب أحب إلى الله أم الساحر؟"**

إن الموقف أمام الدابة كان بالإمكان أن يكون عابراً، لكن الغلام قرأه بكل ذكاء، فأخذ بيده حجراً، وتوجّه إلى ربه العزيز بدعوة "اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس" ثم رمى الدابة بالحجر... فهو بهذه الدعوة أراد شيئين:

الأول: نفع الناس حتى يُفتح لهم الطريق ويمضوا.

الثاني: المدد والعون من الله تعالى ومعرفة الطريق الصحيح، لأنه كان محتاراً بين نقيضين؛ بين ساحرٍ يفعل المعجزات، وبين راهب يدعوه للإيمان بربٍّ لم يره، لكن كلامه منطقيّ، وله نور ويتفق مع فطرة الغلام، فاستجاب الله تعالى له فقتل الدابة بحجره البسيط ونوّر بصيرته.

ونلاحظ أن مبدأ (التوحيد) راسخ عند الغلام، فطوال الوقت يردد "اللهم.. اللهم" إنها كلمته التي يلجأ بها إلى ربه العزيز.

- **<u>الوقفة التاسعة: ربّ المستحيل يفعل المستحيل:</u>**

فلا تظنّ أنّ شيئاً ما لا يمكن أن يحصل، الله تعالى خلق الكون، وخلق قوانينه، فإذا أراد شيئًا غيّر تلك القوانين، فأفقد نارَ إبراهيم -عليه السلام- حرارتَها، ومنع سكّينه الحادّة من قتل ولده إسماعيل -عليه السلام-ولو أراد إيقاف الشمس لأوقفها، كما فعل مع يوشع بن نون -عليه السلام- فإيّاك أن تقول عن شيءٍ أنّ وقوعه مستحيل، فالله-سبحانه وتعالى-لا شيء يعجزه في السماوات والأرض، فادعوه بضعفٍ ويقينٍ تامٍّ بقدرته اللامتناهية على فعل ما تريد، وبسعةِ خزائنه الملآى بما تريد، فإذا استقرّت هذه الحقيقة بداخلك سَهُلَتْ عليك الدّنيا، كيف لا؟ وأنت مسنودٌ من قِبَل القويّ العظيم، لا من قبل البشر. لذلك فإن السلف كانوا يجابهون الدنيا بيقينهم بكلمة **(ربنا الله).**

- **<u>الوقفة العاشرة: التّجرُّد من الحسد ومن سوء الطّوية (الظّنّ):</u>**

لمّا قَتل الغلام الدّابة ذاعَ صيتُه بين النّاس، وقالوا عنه: إنّه بلغ من العلم مبلغاً لم يبلغْه أحدٌ قبله... ولمّا أتى الغلامُ الرّاهبَ بعد قتلِ الدّابة؛ قال له الرّاهب: **"أيْ بُنَي أنت اليوم أفضل منّي"**، فالرّاهب لم يحسُد الغلام على هذا التّمكين العظيم من الله تعالى، ولا على انتشار صيته في المملكة.

هذا درسٌ مهمّ وهو أنْ تبتعدَ عن حسد أي شخصٍ آتاه الله خيراً، وأنْ تتجنّب الظنّ السيّئ بالنّاس. فلنتعلّم من الرّاهب كيف تعامل مع الغلام، إذ أنّه لم يكتمْ موهبته، بل شجّعه وأثنى عليه ليبذل أقصى ما عنده، وذلك عندما قال له بعد قتله الدّابّة: **"أي بني أنت اليوم أفضلُ منّي"، إلّا أنّه** لم يترك الغلام يصاب بالغرور والتكبّر فقال له: **"أنت اليوم أفضل مني، وإنك ستبتلى".**

ولعلّنا نذكر ما قاله**(ورقة بن نوفل)** للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: **"يا ليتني كنت فيها جذعا إذ يخرجك قومك، فقال النبي-عليه الصلاة والسلام- أوَ مخرجي هم؟ قال له لم يأتِ أحد بمثل ما أوتيت به".**

نبّه الرّاهب الغلام أنه على الرغم من هذه المعجزة التي حقّقها الله على يده؛ فالطريق ليس مفروشاً بالورود، بل إنّه سيُبتلى بعد أن ظهر أمره للنّاس، واختاره الله لتبليغ رسالته، من غير أنْ يسبّب له الذّعر فقال له:**"ستُبتلى"** ولم يقل:**(بُليتَ)،** ليحافظ على أمله بأن الله سينجّيه.

- **<u>الوقفة الحادية عشرة: استخدمْ نِعَمَ الله تعالى عليك:</u>**

عندما كان المرضى يأتون طالبين منه الشفاء؛ يقول لهم: "أنا لا أشفي"، بل كان يردّ الأمر كله لله ويعترف بعجزه البشري عن شفاء أياً كان دون إذن الله عز وجل، ولا يشفي أحداً حتى يؤمن بالله تعالى. أما بهذا العصر _والعياذ بالله_ أصبحنا نرى الناس يذهبون إلى الدجالين والمشعوذين وشياطين الإنس بقصد الشفاء أو البحث عن حلول لمشاكلهم، فيقبّلون أيديهم وأرجلهم ورؤوسهم، وهذا _والله_ قمة الجهل والشرك.

إن أمر الغلام شاع بدايةً في الطبقات المسحوقة، ثم وصل إلى حاشية الملك، وهذا يدلّ على اتساع القاعدة الشعبية التي آمنت به. وأصبحت الناس تنبذ دين الملك الباطل وتكتشف دين الله، كيف لا؟ وقد أبصروا نوراً لا يمكن أن يطفئه أحد، ففي هذه المرحلة (ارتبطت قلوب الناس بالله).

وبالرغم من المغريات المادية والمتاع الذي قدّمه جليس الملك للغلام فإن الأخير لم يبهره شيءٌ، رغم صغر سنه، ولم ينسَ الحقيقة، ولم يتجبر على الله، وظل على نهجه "أنا لا أشفي، إنما الشافي هو الله"

فمن هنا تعلّم أنك إذا رُزِقتَ بموهبةٍ ما أو طاقةٍ كبرى أن تربط استخدامها _دائماً_ بالله، ولا تتناسى وتظن أنك أنت من جلب لنفسه تلك القدرات.

- **<u>الوقفةالثانية عشرة: إذا ذاق القلبُ الحقَّ وخالطه ثبت:</u>**

جليس الملك هو من أكثر الناس علماً ببطشه وظلمه وجرائمه، ولعله شهد بأم عينه عدة مظالم أوقعها الملك بالناس، وبالتالي فجليس الملك على درايةٍ تامةٍ بالمصير الذي ينتظره في حال أظهر إيمانه بالله تعالى، لكنّه عندما سأله الملك: "من ردّ بصرك؟" أجاب: "الله" فسأله الملك: "أنا؟" فأجاب الجليس بكل شجاعة: "لا، ربي وربك الله". أيُّ ثقةٍ هذه! أي يقينٍ بالله هذا! أي علاقةٍ مع الله نشأتْ وتوطّدتْ بلمح البصر!

ولنا في قصة موسى عليه السلام خير مثالٍ عندما سقط السحرة المنافسون لموسى المدافعون عن فرعون، ساجدين بعد ما رأوا عصا موسى، بعد ما أدركوا الحق الذي يختلف عن السحر وعن الباطل الذي عاشوا عليه واسترهبوا الناسَ به.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾**(الأَعرَافِ: ١٢٠-١٢٢).**

وقال تعالى لما توعدهم فرعون بذلك الجزاء: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ (٤٩) قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ **(الشُّعَرَاءِ: ٤٩-٥٠).**

تلك الدرجة التي بلغها هؤلاء هي بسبب الحق الذي خالط بشاشته قلوبهم حتى ثبت ورسخ فيها، إنه اليقين بالله، الله القوي، المتين، والسند عندما يخيّب البشر الظنون، ذلك الإيمان العميق بالله الذي قد يعيش الكثير منا سنين طويلة ولا يتذوق طعمه، نسأل الله ألّا يحرمَنا حلاوة الإيمان به.

- **الوقفة الثالثة عشر: عامل النّاس بالتّرهيب تارةً، وبالتّرغيب تارةً أُخرى:**

لمّا بلغ الغلامُ مبلغاً عظيماً في المملكة وذاع صيتُه وقدرته على إبراء الكَمَه والبرص؛ اعتقد الملك أنّ ذلك نتيجةٌ لتعلّمه السّحر _كما ورد في الحديث_ وأنكر وجود إله يدعوه فيستجيب له، وكان بإمكان الغلام القول إن ذلك نتيجة السّحر ويكتم إيمانه في قلبه دفعاً للتّهلكة _وهذا مسموح بالدين ولا يبطله_ ويخرِج نفسه من هذا المأزق، لكنّ الغلام لم يتعامل بهذا الرخص أو الضعف؛ وأعلن الحقيقة بكل شجاعة وقال: **"إني لا أشفي أحدًا إنّما يشفيه الله"**، فهذه الكلمة هي التي أرسل من أجلها الأنبياء والرسل. حتى إنّ رسولنا محمّد صلى الله عليه وسلم كان من أدعيته: "**اللّهم ربّ النّاس أذهبْ البأس، اشفِ، أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقما**". فلا بد لكل مُبتَلَى أنْ يتوجّه بهذه الكلمة بقلبه وعقله، ويتيقّن ألّا شافيَ إلّا الله، دون أن يكون أي وجود للمستحيل في قلبه، ويجب أن تستقر هذه الحقيقة عند الطّبيب قبل المريض، ويعلما أنّ الأدوية العلاجية ما هي إلا سبب سخّره الله بقدرته، فلا علاقة لشهرة الطبيب أو ذكائه بشفاء المرضى؛ لأن يد الله فوق كل الأيدي، فالله القدير هو مسبب الأسباب، وهو الذي يضع في الأسباب خواصّها.

لقد حاول الملك أنْ يجعلَ الغلام يتراجع **بالتّرغيب،** عن طريق دفعه للاعتراف بأن كل ما تعلمه من سحر هو من الملك والسّاحر، لكن الغلام أبى ذلك.

- **الوقفة الرابعة عشر: ابتلاء الله الناس سنة الكون:**

بدأ الابتلاء الحقيقي، بتعذيب الغلام حتى يدلَّ على الرّاهب، والاعتراف تحت التّعذيب شيءٌ طبيعي، فإذا كان جليس الملك قد اعترف فكيف بطفلٍ صغير؟! إذ كانوا يُعَذِّبونهم عذابًا أليما كما ورد في القصة.

رأى الغلام بعينيه عملية تعذيب وقتلِ كل من جليس الملك والرّاهب، وعاينَ المشهد بالتّفصيل،

ونحن نمنع أبناءنا من رؤية ذبح الذّبيحة؛ حرصاً على مشاعرهم، وعدم تأثّرهم برؤية دمائها، لئلّا يؤثّر ذلك على شخصيّتهم ويقودها للتّعقيد.

فالغلام بعد أنْ تعذّب نفسياً؛ بتعذيب مَنْ قبله، رافضًا الرّجوع عن دينه "دون أنْ يعرف أنّه سيلقى مصير سابقَيْه، ويُنشر بالمنشار، إلّا أنّ ذلك لم يُضعف عزيمته، فقد أمَدّهُ الله بالثّبات والإيمان الرّاسخ بعقله وقلبه "فقال: **لا أرجع عن ديني"،**تمهّل الملك _كما رأينا_ بعد ما رآه من إصرار الغلام، فخشي أنْ يقومَ النّاس ضدّه إذا أقدم على نشره بالمنشار ،إذ كان يبرئ الأكمه والأبرص، لذلك أمر الجنود باصطحابه إلى الجبل، وإلقائه من قمّته، إذا لم يرجع عن دينه. قال الملك: **فإذا وصلتم إلى ذروة الجبل، اسألوه أنْ يرجعَ عن دينه وإلّا فاقذفوه".**

وهذا ضغطٌ نفسيٌّ آخر رافق تهديدات الجنود. وفي ظِلّ هذا الابتلاء سنلاحظ في وقفتنا التالية ما فعل الغلام.

- **الوقفة الخامسة عشر: عند الكرب لا تفزع إلّا لله:**

على قمة الجبل وفي تلك الأجواء المرعبة التي صنعها الجنود الضالّون، والمدجّجون بالأسلحة، والطفل البريء واقفٌ بينهم، لا يمكن للعقل البشري عندها أنْ يتخيّل سبيلاً للنّجاة، إلّا أنّه دعا ربّه السّميع البصير بثلاث كلمات: " **اللهم اكفنيهم بما شئت ".**

من المؤكّد أنّه لم يُخيّل له أنّ الجبل سيرتجف ويُسقِطهم كلّهم إلا هو، فربنا ربّ المظلومين، وعندما يفزع إليه العبد المكروب يفرّج الكرب ويجيب السؤال.

رجع الغلام إلى الملك على قدميه، بعد أن نجّاه الرّحمن، ولم يهرب إلى قريةٍ أخرى، لأنّ معه رسالة يريد تأديتها، فلم يكن مهتمّاً للدّنيا، بقدر تشوّقه للموت في سبيل الدعوة لله ودخول الجنة مثل سابقَيْه، وهذا كلّه جرّاء التشبّع بالإيمان.

وتذكرني هذه القصّة بالطفل السوري الصغير تحت أنقاض الزلزال، وهو يتكلم عن أمه وإخوته ويقول: إنهم سبقوه إلى الجنة وبقي وحيدًا، ويرجو من الله أن يُلحقه بهم!

لقد أدرك هؤلاء أنّ الموت ليس أخطر شيء، وأنّ الخطر الحقيقي على ماذا ستموت.

ظنّ الغلام أنّه إذا عاد سيؤمن الملك ومن معه، فجاء إليه فسأله الملك: ما فعل أصحابك؟ أين هم؟

فأجاب:**"كفانيهم الله بما شاء".**

لقد أجاب الملك جوابًا لم يستفزّه، فلربما أن الملك ظن ّأنها حادثةٌ عرضيّة، أو لعلّ الله ختم على بصيرته، فأمر جنوده أنْ يأخذوه هذه المرّة إلى عرض البحر ويقذفوه فيه، إن لم يرجع عن دينه"، الغلام في وسط البحر، مقيّدٌ بالأغلال والسّلاسل كي لا يكون له وسيلةٌ للنّجاة "ومع ذلك عندما أرادوا رميه ورفض أن يرجعَ عن دينه، دعا بثلاث كلمات فقط:**"اللهم اكفنيهم بما شئت".**

فإذا وقعت في ضيق، كن على ثقة أنْ لا أحدَ إلّا الله عزّ وجلّ سيكفيك، فعندما وصل الغلام إلى قمة اليقين والتوحيد بالله، انقلبت السفينة بهم كلهم، أغرقهم الله ونصر الغلام ونجّاه بقطعة خشب يطفو معها على الماء،

ليس مهمًا كيف نجا؟ فالله أراد له ذلك بمشيئته، وعاد ثانيةً إلى الملك، فسأله: ما فعل أصحابك؟ قال:**"كفانيَهم الله"،**

ثمّ اختصر الغلام القصّة، وعلم أنّ الحياة ستكون شبه مستحيلة. فلن يؤمن الملك ولن يسمح له بالدّعوة بعد الآن، لكنّ الرّسالة التي يريد الغلام إرسالَها لم تصلْ للنّاس **بعد "فذهب للملك، فقال: اسمعْ مني، إنّك لن تقتلني حتّى تفعل ما آمرك به"،** فانظر إلى القوة التي يمنحها الإيمان، لقد أمره أمراً، ولعله أول أمرٍ يُؤمَر به الملك طوال حياته **"فخذ سهمًا من كنانتي، ثمّ خذ قوسي، ثمّ اجعلِ السّهم في كَبِد القوس، ثمّ قل: بسم الله ربِّ الغلام، فإنّك إن فعلت ذلك تقتلني"**، عمي على الملك، فهو لم يعد يريد إلا الانتقام من الغلام والتّخلص منه، وهذا من تهيئة الله تعالى للأسباب، فباستجابته لأمر الغلام أعلن أمام الملأ بأعلى صوته اسم الله.

"فأخذ بالفعل يجمع النّاس في صعيدٍ واحدٍ، وفعل ما قاله له الغلام، وبالفعل دخل السهم في صِدغه، لم يقتل الملك الغلام بهذه الضربة، وإنما كانت بأمر الله عز وجل. فوضع الغلام يده على صِدغه فمات".

مات الغلام، وخسرنا روحًا، لكنّنا ربحنا آلاف المؤمنين بالله عز وجل، هنا أمر الملك بإقامةِ مذبحةٍ عظيمة، إبادة لم نسمع بها إلى وقتنا الحاضر، وأمر أن تُحفَر الأخاديد بأفواه السّكك، وتُضرَم فيها النيران.

وكل واحد يمر في الطريق يُمتحَن في إيمانه، ويُخيَّر بين الرجوع عن دينه وبين إلقائه في النار، فأخذ النّاس يتدافعون، رجالًا ونساءً، صغارًا وكبارًا، يلقون أنفسهم في النّار، امرأة نفاس وصل إيمانها إلى قرارة قلبها، فتأتي امرأةٌ تحمل رضيعها، فتخاف أن ترمي ابنها في النّار، فينطقه الله تعالى، ويقول لأمّه: اصبري فإنّك على الحق، فيقفزان فيها.

وفي حديث لأبي هريره -رضي الله عنه- عن الرسول صلى الله عليه وسلم:" لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ ...، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ...."[5]

يا له من امتحانٍ رهيبٍ تعرّض له هؤلاء! لقد قدّموا الموت حرقاً على حياة الذّل والكفر والشّرك، فعرفوا ألّا قيمة للحياة إذا لم يظهروا إيمانهم، فقُتلوا عن بكرة أبيهم، واختاروا الحياة بدار الخلود، فما عند الله خيرٌ وأبقى. واستيقظ النّاس في اليوم الثاني ولم يبق في تلك القرية مؤمنٌ قطّ.

يقول الله جل جلاله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ **(البروج: 4-8).**

[5] أخرجه البخاري في صحيحه.

انتهت قصّة الغلام بموته، وعند الله تجتمع الخصوم، القاتل والمقتول، فمن فاز بدار البقاء؟

فاز بها أولئك الذين اختاروا ما عند الله عزّ وجل، فليست كل الهزائم هزائم، فالبعض في جوهره انتصارات، لذلك من المهم أن تقرأ ما وراء الحدث، وأن يكون قلبك موقنًا بالله عز وجل، وأنْ تعرفَ أنّ هذه النّهاية قد لا تكون هي النّهاية، بل تكون بدايةً لشيءٍ أجمل وأفضل.

كانت هذه لمحةٌ عن قصّة أصحاب الأخدود، أسأل الله أن ينفعَنا بها، وأن يجمعَنا بهم مع نبينا وصحابته أجمعين، والحمد لله رب العالمين والصّلاة والسلام على سيّد المرسلين. وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها